

فلسفة كانت

للاستاذ زكى نجيب محمود

كانت الفلسفة وهى فى مهدها مطمئنة إلى تلك الأداة التى اتخذتها سبيلاً إلى تفهم الكون وما يحوى من سر مكنون ، فكانت تأتمن هذا العقل الانسانى وتثق به وثوقاً لا يعرف الشك ، ولكنها ما لبثت أن اشتد ساعدها واستقامت على قدمين راسختين ، فانقلبت على تلك الأداة نفسها ، ودخلها الريب فى أمانتها ودقتها فيما تنقل إلى ذهن الانسان من صور العالم المحس ، فتناولتها بالبحث والتحليل

وتظن أن (لوك) كان أول من تصدى لذلك البحث فى تاريخ الفكر الحديث ، وقد انتهى بعد بحثه الطويل إلى إنكار الآراء النظرية (Innate ideas) التى يقول دعائها أنها تولد مع الانسان كمعرفة الخير والشر مثلاً ، وأكاد أن العقل عند ولادة الطفل يكون كالصفحة البيضاء ، خالياً من كل شىء ، وقابلاً للتعامل بالبواعت المختلفة ، فاذا ما مرت به تجارب الحياة المختلفة ، تركت فيه آثاراً لا تمحى ، وطريق تلك التجارب الى العقل هى الحواس وحدها ، وليس فى حنايا العقل أثر واحد لم يسلك طريق الحواس أولاً ، فالآثار الخارجية تنتقل إلى الذهن فى إحساسات مختلفة ، ثم تولد هذه الاحساسات شتى الآراء والافكار . ومادامت الأشياء المادية وحدها هى التى يمكن أن تنتقل عن طريق الحواس ، إذن فكل معلوماتنا مستمدة من الاجسام المادية دون غيرها . ومعنى ذلك أن المادة عند (لوك) هى كل شىء ثم جاء (بركلى) وخطا بعد ذلك خطوة جريئة . فقد سلم بمقدمات لوك ، ولكنه اختلف وإياه فى النتيجة . ألم يقل لوك بأن معلوماتنا جميعاً مشتقة مما يجىء عن طريق الحواس ؟ إذن فنحن لا ندرى عن الشىء الخارجى إلا الاحساسات التى تنبعث إلينا منه ، والافكار التى تتولد من هذه الاحساسات عند وصولها الى الذهن . خذ تقاحة مثلاً ، فهذا لونها يصل اليك ضوءاً عن طريق العين ، وهذه رائحتها تصل عن طريق الأنف ، وذاك طعمها تعلمه عن طريق الذوق ، وذلك ملمسها وشكلها يصلان

الأول أن تقول « فلان أخيف » بدل « فلان إحدى عينيه زرقاء والآخرى كحلاء » وفى الثانى « هؤلاء الاخوة أخيان » بدل « هؤلاء الاخوة من أم واحدة وآباء شتى » ، وقد كسبنا بذلك الوقت والسرعة ولفظة جديدة ، وهذه الكلمة لأحد يقول « حتى الاستاذ أحمد أمين » إنها نافرة أو ثقيلة على الجيل الحاضر ، وقد استعملها ابن زيدون فى قطعة جميلة من شعره .

فقال صديقى الكاتب الكبير فى صيغة التحدى والتهمك ، إنك بذكر هذا اللفظ أطلت فى الوقت واضعفت من السرعة لانك ستشرحها للقارىء بهذه المعانى التى ذكرتها ، فكان خيراً لك وله لو أنك اكتفيت بالشرح عن المشروح فلم تذكر اللفظ الواحد ثم تتبعه بجملة شارحة ، فقلت أنا أولاً لا أسلم بضرورة الشرح فان القارىء واحد من اثنين ، قارىء يقظ يقرأ ليفهم ويفتش عن كل كلمة ولا يكتفى بالفهم الاجمالى ، وهذا القارىء عندما يجد هذه الكلمة — إذا لم يكن يعرفها — سيبحث عنها فى القاموس حتى يعرفها ، ومن المرجح أنه بعد ذلك لن ينساها ، وهذه وحدها فائدة أخرى ، والقارىء الثانى يمر على الكلام مراراً ويكتفى بالفهم الاجمالى ، فهذا ليس يهمنى أن أشرح له ، ولعله هو أيضاً لا يهتم لشرحى ، وعلى فرض التسليم بضرورة الشرح لهذه الكلمة ومثلها ، فان الشرح لن يكون إلا بمقدار ما تشيع هذه الالفاظ وتعرف لجمهور القارئ وعند ذلك تترك وحدها فيفهمها القارىء ونكسب نحن وهو الوقت والسرعة والالفاظ الجديدة تزيد فى لغتنا وتذنبها ، ثم ذكرت له بعضاً من الالفاظ والجمال استعمالها هو بدءا وشرحها فى أول ما استعمالها وأصبحت الآن مفهومة لكل قارىء وشائعة على أقلام الكتّاب والسنة الناطقين حتى كأنها تستعمل منذ مئات السنين

ولعلنا نجد فى المقالات القادمة للاستاذ أحمد أمين أننا فهمنا من كلامه غير ما يقصد هو . وعندئذ فنحن على وفاق ، أو فى « خلاف لفظى . . . » كما يقول الاصوليون « محمود . ع . الشرقاوى » عالم من الازهر

(الرسالة) جاءنا من الدكتور عبد الوهاب عزام مقاله الثانى فى الرد على الاستاذ أحمد أمين فى موضوع التجديد . وسنشره فى العدد القادم .

اليك عن طريق أعصاب اليد ، فإذا تناول هذه التناحية كيف
 البصر ، علم عنها كل شيء إلا لونها ، وإذا كان فاقداً لحاستي
 الشم والذوق ، اقتصرت معرفته على الشكل والملمس ، فإذا
 فرضنا أن أعصاب يده فقدت عملها أيضاً ، أنكر صاحبنا
 وجود التفاحة في يده مهما قدمت إليه من وسائل الاقناع .
 فلو لا الحواس لما كان للأشياء الخارجية وجود بالنسبة لنا على
 الاقل . فالحواس هي التي كونتها . ولذلك لم يتردد بركلي في
 انكار المادة انكاراً تاماً . ولا يعترف بوجود شيء الاحقيقة
 واحدة يحسها في نفسه وهي العقل

أجهز بركلي على المادة فحاشاها من صفحة الوجود ، وأشفق
 على العقل فسلم به ، ولكن جاء بعده هيوم ، فأبى أن يقف عند
 هذا الحد المتواضع من الانكار ، وسارع إلى العقل بمعوله نألقاه
 في هوة العدم ! ما هذا العقل الذي يتشبث بوجوده بركلي ؟
 إبحث في نفسك بحثاً باطنياً وحاول أن تعثر على ذلك العقل
 باعتباره ذاتاً مستقلة ، فلن تعود بظائل ، ولن تصادف في نفسك
 إلا سلسلة من الافكار والمشاعر والذكريات يسوق بعضها
 بعضاً ، فليس ثمة عقل ، ولكنها عمليات فكرية وصور
 ذهنية لا أقل ولا أكثر . وإذا فقد انهار العقل كما انهارت
 المادة من قبل ! وهكذا قوضت الفلسفة بفؤوسها كل شيء ،
 ثم وقفت بين تلك الانقاض الخربة لا تجد وقوداً يذكها ،
 فقد ضاع العقل وضاعت المادة ولم يبق لها منهما شيء ! ؟

ولكن الله قيض لها فيلسوفنا العظيم « إيمانويل كانت »
 فأعاد البناء من جديد ، وشيده على أسس قوية ثابتة
 لا تزال قائمة حتى اليوم . فقد أنكر باديء ذي بدء ما ذهب
 اليه لوك والمدرسة الانجليزية انكاراً تاماً ، لان التجارب التي
 يقول عنها لوك إنها مصدر معرفتنا جميعاً ، لا يتحتم أن تلازمها
 الصحة دائماً ، فهي ان صححت نتائجها اليوم فقد تحطى غداً ،
 فضلا عن أنها تقتصر على الجزئيات ولا تهدها الى التعميم الذي
 ينزع اليه العقل بطبيعته ، وبملا لاريب فيه أن لدينا من الكليات
 العامة ما يستحيل عليه الخطأ ، كأن نقول مثلاً ان $2 \times 2 = 4$ ؛
 فهذه حقيقة لم نعلمها في تحصيلها على تجربة خارجية ، وإنما
 اكتسبت ضرورتها من طبيعة عقولنا ، فليس العقل
 الانساني سلبياً ، ليس قطعة من الشمع تولد خالية ثم تحط
 فيها التجارب ما تشاء كما ذهب لوك ، كلا ولا هو

اسم يطلق على سلسلة الحالات العقلية كما ادعي هيوم ، انما هو
 عضو فعال ، يتناول الاحساسات التي تأتي اليه من العالم الخارجي
 فيؤلف بينها ، ويكون منها الافكار المختلفة ، ويصحبها القالب
 الذي يشاء . العقل الانساني قوة ايجابية تعمل على تنظيم ملايين
 التجارب التي تصادف الانسان في حياته ، وتلحق منها وحدة
 فكرية منظمة ! ولكن كيف ؟

يجتاز العقل في ذلك مرحلتين : الاولى هي الانتقال من
 مجرد الاحساس إلى وصول الأثر إلى الذهن ، إلى الإدراك ،
 أي فهم ذلك الأثر المعين . والثانية هي الانتقال من هذه
 المدركات الجزئية إلى المعقولات والكليات العامة . وسنفصل
 هذا الاجمال فيما يأتي :

تأمل نفسك لحظة ، تجد عدداً من المؤثرات لا يحده الحصر
 يندفع اليك ويتسلل إلى ذهنك عن طريق الحواس ، فهذه عشرات
 الاصوات تنتقل إلى اذنك من جهات مختلفة ، وتلك آلاف
 المرئيات تبتضوئها إلى عينيك ، وها هو ذا جسمك يحس في كل
 جزء من اجزائه بالمؤثرات المختلفة : يحس نعومة ملابسك
 أو خشونتها ، كما يحس الحرارة والبرودة . فهذه الاحساسات
 العديدة المختلفة التي تصل إلى ذهنك من ابواب متباينة ، تسبح
 في العقل صماء دون أن يكون لها معنى خاص إلا اذا تألفت
 اجزاؤها وارتبطت بمكان وزمان ، وذلك التأليف والربط لا بد
 لها من قوة ايجابية ، هي العقل . فانت قد ترى اللون الاصفر
 وتحس الشكل الدائري ، وتشم رائحة معينة ، وتذوق طعاماً خاصاً
 ولا يكون لسلك تلك المؤثرات مدلول واحد ، الا اذا جمع
 العقل هذه الاشتات وربطها بمكان خاص — في جسم برتقالة
 . مثلاً — وعندئذ ينقل احساسك إلى ادراك لهذا الشيء المعين
 فالواقع ان الاحساسات الأولية ليست الا مؤثرات متفرقة
 تجيء إلينا من الخارج . ولا يكون لها معنى بذاتها ، وهذا
 ما يشعر به الطفل في اول حياته العقلية . اذ يرى لون البرتقالة
 ويمسها بيده ، ويشمها ويذوقها . ولكنه مع ذلك لا يعرفها
 فاذا ما تمت قواه العقلية ، اخذت هذه المجموعة من الاحساسات
 تتجمع وترتبط بهذا الشيء ، وبذلك ينتقل حسه إلى مرتبة
 المعرفة والادراك ، ولا تعود صفات البرتقالة تؤثر في ذهنه
 مستقلاً بعضها عن بعض كما كانت الحال من قبل ، بل تنتقل
 إلى ذهنه ككتلة متحدة مترابطة لا انفصال فيها . ولكن كيف
 أخذت تتجمع هذه الصفات في الذهن حتى تكون منها كل

يستعين في هذا التفكير بالعرض الذي يوجهه الى المؤثرات الخارجية .

ولما كان لا مندوحة للعقل عن أن يفرض مكانا وزمانا يسند اليهما أثر الاحساس المختلفة . لانه لا يستطيع أن يتصور مدركات مطلقة ، فليس في مقدوره مثلا أن يفهم اللون الابيض مجرداً عن « مكان » ولا أن يدرك حادثة الا اذا نسبها الى « زمان » الى ماض أو حاضر أو مستقبل ، أقول لما كان لا مندوحة له عن فرض الزمان والمكان لفهم المادة التي تقدمها له المؤثرات الخارجية . اخترعها اختراعاً ، فهما ليسا حقيقتين في ذاتهما . أى ليس في الوجود الخارجى زمان ولا مكان ، انما خلقهما العقل ليتخذهما وسائل للادراك ، وسيلا لصب المعانى فى المحسات .

شرحنا فيما سبق كيف تنتقل الاحساسات المنبعثة من الاشياء الخارجية الى ادراك ، وزيد الآن أن نوضح الخطوة الثانية التي يجتازها العقل فى أداء وظيفته ، عند الانتقال من هذه المدركات الى مرتبة المعقولات أى تصور العلاقات الكائنة بين أجزاء الوجود بعضها ببعض ، وبعبارة أخرى تلك الخطوة التي يخطوها العقل من مرحلة التجارب الجزئية الى العالوم الكلية . فكما أن للعقل قوة يتمكن بها من تنظيم البواعث المختلفة فى قالب المكان والزمان ، فيدرك بذلك معنى الاشياء ، كذلك له قوة أخرى ، تجيء بعد هذه ، وهى التي نظم تلك المدركات فى قوانين عامة ، كقانون السببية ، وقانون الجاذبية ، وما الى ذلك من النواميس التي تبوب على أساسها معلومات الانسان ، وهذه العملية هى كنه العقل وطبيعته ، فالعقل عبارة عن عملية تنظيم التجارب وتبويبها ، وهو فى هذا التبويب والترتيب ايجابى فعال ، وليس كما توهم لوك وهيوم قطعة من الشمع اللدن التي تشكلها التجارب المختلفة والا فهل تستطيع أو تتصور الوحدة الفكرية التي تشتمل على فلسفة (ارسطو) ، والتي تكونت ولا ريب من جزئيات أتته عن طريق التجربة والحواس هل تستطيع أن تتصور ان تلك الجزئيات قد نظمت نفسها بطريقة آلية حتى بدت متماسكة فى فلسفة متحدة ، دون أن يتدخل العقل فى ذلك التنظيم ؟

تخيل ان بطاقات دارالكتب قد انتثرت فى غرفها واختلطت ألفتها بياتها ، فهل تصدق ان هذه البطاقات تستطيع أن تجمع نفسها وترتب صفوفها ، وتسلط طريقها الى قطراتها فى نظامها الابجدى ؟ !

لا يتجزأ له مدلول خاص ؟ هل تم ذلك بطريقة آلية ، أى اخذت تراص بجانب بعضها البعض . فسارع لوز البرتقالة ووقف بجانب الرائحة والطعم والشكل . حتى تكونت صورة البرتقالة فى الذهن ، دون ان يتدخل العقل فى هذا التكوين ؟ هنا يجيب (لوك) ومدرسته بالايجاب وينكره (كانت) كل الانكار ، ولا يفهم كيف تتحد جزئيات الاحساس التي سلكت الى الذهن الف سبيل وسبيل من تلقاء نفسها . الا ان يكون هناك قوة تنظم هذه الفوضى الحسية ، قوة تؤلف بينها وتوجهها فى الطريق التي تريد ، قوة تشكلها وتصبها فى قالب المعنى . هى قوة العقل . وآية ذلك ان الانسان يأتيه فى كل لحظة آلاف الاحساسات ، ولكنه لا يقبلها جميعا ، بل ينتقى من ذلك الجيش الجرار من الدوافع والمؤثرات ما يلائم حاله فى تلك اللحظة المعينة ، وهذا دليل قاطع على فاعلية العقل ، ولو كان الأمر يتم بالطريقة الآلية التي زعمها لوك وهيوم ، لما كانت هناك أفضلية لاحساس على آخر ، بل يرغم الانسان على قبولها بأسرها ، فكل صوت يقرع الاذن لابد أن يصل الى الذهن ، وهكذا فى سائر الحواس . ولكن ليس هذا هو الواقع . فهاهى ساعتى تدق على مكثبي أثناء كتابة هذا المثال ، ولكنى لا أسمعها لأننى لا أريد أن أسمعها فاذا ما توجهت بارادتي الى استماعها ، تم ذلك على الفور . مع أن صوتها لم يرتفع عن ذى قبل . وقد تكون الأم نائمة مستغرقة فى نومها ، فتحدث جلبة شديدة ، أو تهر موسيقى أمام البيت بطلها وزمرها ، فلا تستيقظ من نعاسها ، أما اذا تحرك ابنها الرضيع فى مهده حركة خفيفة ، أو بكى بصوت منخفض ، هبت من نومها مذعورة . فما الذى أثر عندها هذا الصوت الخافت على مئات الأصوات التي تفرع أذنها ؟ الا أن يكون هناك قوة فعالة تعرف كيف تختار من المؤثرات ما هو صالح ملائم .

خدمتلا آخر يدلك على ايجابية العقل فى الادراك . انظر الى هذين الرقين ٣ ، ٢ : وأجر فيهما عملية الجمع ، تسارع الى ذهنك النتيجة وهى خمسة ، ثم أقرأها ثانية معترماً اجراء عملية الضرب تجيء الى ذهنك نتيجة أخرى هى ستة . هاتان فكرتان أو نتيجتان مختلفتان نشأتا فى الذهن من باعث واحد ، وكان السبب فى اختلافهما اختلاف الغرض الذي توجه به الذهن نحو ذلك الباعث ، ويتضح من هذا أن العقل ليس مجرد آلة « كرهة » تلتقط الاحساسات كما هى ، وعلى رغم أنفها ، ولكنه قوة تدعو من البواعث ما تريد . ثم تفكر فيها بأشكال مختلفة . وهو

ولكن لا يسمعك الا الاعتراف ولو أمام نفسك ان هذا خطأ
ولو خيرت لما رضيت أن يسود الكذب والسلب بين الناس .
وكل انسان على الأطلاق يحمل بين جنبه هذا الوازع الذي
لا تأخذه عن أعمالك سنة ولا نوم ، والذي يميل على صاحبه في
غير لبس ولا غموض ما يجوز عمله وما لا يجوز .

وهذا الخير الذي يمليه الضمير إنما يقصده لذاته على الرغم
من انه قد يتضارب مع صالح الفرد تضاربا صريحا . فالمثل الاعلى
الذي يصوب اليه هو اداء الواجب دون النظر الى السعادة الشخصية .
ووجود الضمير دليل قاطع على مال الانسان من حرية الارادة
لأن معنى رقابته أن الانسان يستطيع أن يسلك هذا السلوك
أو ذاك ولو كان الانسان مرغما على أن يسير في طريق مرسومة
لما كان لهذا الضمير فائدة . وكذلك يدل وجود الضمير على خلود
الروح . ذلك لان الحياة الدنيوية لا تأخذ المحرم بالقصاص في
كل الاحيان ، لابل تضرب لنا الحياة آلاف الأمثلة بأن الشر
هو السبيل الى السعادة الشخصية ، تعلمنا الحياة أن نكر بالآخرين
وأن من لا يظلم الناس يظلم ، ولكننا على الرغم من ذلك نشهد
الخير ونبذ الشر ، فهذا الشعور لم يستمد من الحياة طبعاً ، فن
أين جاءت تلك النزعة للخير اذا لم نكن نعلم في أعماقنا أن هذه
الحياة الدنيا ليست كل شيء ، بل هي جزء من حياة ثانية خير وأبقى
من الأولى ، وأن هذا الطيف الزائل ليس الامقدمة لبعث جديد ؟
ثم يستطرد (كانت) في هذا المنطق ، حتى يصل الى اثبات وجود
الله عز وجل ، لانه اذا كان الشعور بالواجب الذي يمليه الضمير
يتضمن الدليل على حياة أخرى خالدة تجزي كل امرئ بما قدمت
يداه ، فهذا الخلود ناشئ بالضرورة عن سبب يلائمه ، كي
تتكافأ العلة والمعول ، أو بعبارة أخرى لا يمكن أن تنفرد الحياة
الخالدة الا عن إله خالده .

هذا هو البناء الشامخ الذي شيده كانت ، ولا يزال قائماً في
عالم الفلسفة تعمل فيه معادل الهدم فلا تنال منه الا كما تنال
الريح الهينة من الجبال الشامخ الرواسخ ، وعلى الرغم من أن كتاب
القرن التاسع عشر حاولوا أن ينقضوا رأيه في الاخلاق والدين
فقال قائل أن ليس ثمة ضمير يميل للخير ، لان الخير ليس مطلقاً
فما هو خير اليوم قد يكون شراً غداً ؟ وسخر ناقد من منطق
(كانت) في اثبات وجود الله ، فقال انه « كالحاوي » الذي يخرج
من قبعته الفارغة ما يشاء ، يريد بذلك انه انزع نتيجة من
مقدمات لا تؤدي الى ذلك . أقول على الرغم من ذلك جميعاً فلا
يسعنا الا أن نطأ في الهامات اجلالاً له واكباراً .

هل يمكن ان يتم ذلك دون أن يتدخل الانسان ويتناولها بالترتيب ؟؟
كذلك حال العقل مع المدركات ، فهي في الكون شتيت
متضارب ، وهي تصل الى الذهن في هذه الفوضى : ألوان
متباينة ، وأصوات مختلفة ، وأذواق عدة ، وأشكال متنوعة ،
فيأخذ العقل في ترتيبها وتبويبها حتى ينتهي بها الامر الى هذه
العلوم المنظمة المنسقة ، وبديهي ان هذا التنسيق لم ينبعث اليها
من الاشياء الخارجية نفسها ، وإذن فقد أخطأ لوك كل الخطأ
حين زعم ان العقل سلب . تنقش فيه التجارب بطريقة آلية ،
فاذا لم يكن الامر كذلك فهل يستطيع لوك ان يبين لنا كيف
ان التجارب الواحدة تؤثر في مجموعة من الرجال ، فتخرج منهم
هذا الغبي وذاك الفيلسوف ؟

كلا! الاندحة عن التسليم بالمجائية العقل وقوته في تكوين المدركات
من الاحساسات أولاً ، ثم في تكوين المعقولات من المدركات ثانياً .
وان صح هذا التحليل ، فيكون العالم كما نعرفه من تكوين
عقولنا وصنعها ، فنحن لانعلم عن الاشياء الخارجية الا مظاهرها
التي تنتقل اليها ، واما في مقدورنا أن نتغلغل في بواطنها ،
وقد تكون هذه الصورة الذهنية التي كونتها عقولنا عن العالم
الخارجي بعيدة جداً عن الحقيقة في ذاتها ، فنحن لانعلم عن
القمر مثلاً الا ما لنبعث اليها منه من احساسات زائداً ما عملته
عقولنا في تلك الاحساسات ، فتكونت لدينا من هذا المزيج
صورة عقلية عن القمر ، أما ان هذه الصورة العقلية تطابق
الواقع أو لا تطابقه ، فلا يستطيع البشر أن يجيب !
وهكذا أثبت (كانت) وجود المادة ، الا انه انكر ان تكون
فكرتنا عنها على مثال الحقيقة الواقعة .

ثم يعود (كانت) بمد ذلك فيرفض ما زعمه لوك من أن العقل
يولد كالصفحة البيضاء ، ويؤكد في يقين انه انما يرث شعوراً
لا يأتيه عن طريق التجربة والحواس ولا بد لكل انسان أن
يسلم بوجوده ، هو ذلك الشعور الذي يدلنا على ان هذا خير
وذاك شر ، هو ذلك الشعور الذي لا يفتأ يؤنبك اذا نبوت عن
جادة الخير ويظمن مادمت سالكها ، هو ذلك الشعور الذي
يحس من أعماقك انك لو اتبعت ما يمليه عليك ، وحذا حدوك
البشر أجمعون ، لكان الخير كل الخير . ذلك الشعور الذي يقف
لك بالمرصاد والذي يولد معك . هو الضمير . ومن ذا الذي
يستطيع أن ينكر هذا الصوت الواضح الجلي الذي يضيق للشر
ويظمن للخير . فأنت قد تكذب . وقد تنهب حقوق غيرك .